الإصلاح أسسه وأركانه في النظام التربوي والتعليمي

في حوار مع السيد محمد علي أيازي*

الحياة الطيبة: ما هو رأيك في أسباب طرح فكرة الإصلاح في نظام التربية والتعليم، مرّة أخرى؟ وما الأسباب التي توجب مثل هذا الإصلاح ؟

السيد أيازي: بالرغم من إن فكرة الإصلاح هي أصل لا يتقيد بزمان ولا مكان معينين وأنها تخضع للتغيرات الاجتماعية والتربوية والسياسية دائماً، ولكن المصلحين في كل زمان يهتمون بأكثر المسائل ضرورة وإلحاحاً في الطبقات والمؤسسات الاجتماعية، والتي تتطلب التحول في التركيب الاجتماعي، وتخلق المشاكل الجدّية في المجتمع؛ ولهذا السبب، فإن العزم على الإصلاح في نظام التربية والتعليم يبدو ضرورياً في ظل التحولات السريعة التي تحدث في المجتمع والتي تخلق نوعاً من القلاقل والاضطرابات الجدّية للجيل الشاب، وتؤدي إلى إضعاف القيم التقليدية في المجتمع. ومن هنا، فإن هذه الإصلاحات هي أطروحة وبرنامج يتناسب مع التحولات والضرورات، والتساؤلات والرؤية المستقبلية للجيل الشاب. وللأسف، يجب أن نقول إنّ أصل هذه الإصلاحات في الظروف الحالية سببت نوعاً من المواقف أو التحليلات الخاطئة والانحرافية لبعض الأفراد، وإلا فمن ينكر القيام بالخطوات الأساسية لإصلاح المجتمع على المستوى العام، والتغييرات الجدية المتناسبة مع التحول في نظام التربية والتعليم بصورة خاصة.

* أستاذ في الحوزة العلمية - قم.

وأعتقد أن من الأسباب التي توجب هذه الإصلاحات ما يلي:

١- تغيير المثل والقيم التقليدية والتحول في شكل الحياة، بالإضافة إلى تغيير الاولويات والاحتياجات.

٢- تفكك الهرم الاجتماعي التقليدي ورغبة المجتمع بالتغيير الجذري وعدم فاعلية الشعارات القديمة.

٣- ظهور الطبقات الاجتماعية الجديدة في المدن، والتفوق النسبي لأهالي المدن على أهالي القرى، وهذه المسألة لها آثار وانعكاسات على النموذج الاجتماعي والتعامل مع المشاكل.

٤- ازدياد عدد الطلاب الجامعيين والمثقفين وتوفر الجو الفكري والعلمي، وهو ما يؤثر بدوره على العائلة ويتطلب استخدام المنطق والأسلوب العلمي والاستدلالي في التعامل مع المسائل. بالإضافة إلى أن هذه التغيرات لها تأثيراتها ونتائجها الخاصة.

٥- الفشل في تطبيق الشعارات المطروحة من أجل تحسين المعيشة وحل المشاكل، وعدم الاعتماد على طريقة حل معينة.

٦- الأزمات الاجتماعية نتيجة فقدان التوازن ووسائل الضبط العائلي التقليدي والأجواء التعليمية والتربوية والقانونية.

٧- مشاكل العمل، وتفشي البطالة، وازدياد ساعات الفراغ. جميع هذه الأمور أدت إلى تزايد الطلبات والتوقعات، وعرضت أصناف من المجتمع إلى الدمار.

٨- تغير مسار انتشار المعلومات وتزايد سرعة انتقالها، وعدم توقفها على نظام الإعلام الداخلي نتيجة لإغلاق الصحف وفقدان اعتبار هذا النوع من الإعلام.

٩- الظروف العالمية التي تميل إلى رفض العنف والتأكيد المتزايد على حقوق الإنسان.

١٠- الحصار الشامل والتهديد المتواصل للبلد، بالإضافة إلى استغلال إسرائيل لأحداث ١١سبتمبر لمحاربة الشعب الفلسطيني والذين يقفون بجانبه.

ولهذا السبب يجب أن يكون لدينا نوعان من الإصلاحات:

الأول: إصلاحات ترتبط بنفس نظام التربية والتعليم.

الثاني: إصلاحات أخرى ترتبط بهيكلة نظام التربية والتعليم في البلد.

وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين عندما يتكلمون عن الإصلاحات يقصدون الإصلاح في البرامج التعليمية وفي أقصى حد في مناهج التربية والتعليم، بينما سوف تبقى الإصلاحات في تلك المناهج حبراً على ورق، إذا لم تحل الإصلاحات في العلاقات الثقافية والاجتماعية، وهيكلية نظام التربية والتعليم، ولهذا فلابد من ذكر بعض النقاط الضرورية في إصلاح نظام التربية والتعليم وهي:

١- الإصلاح في البناء الفكري والتحليلي للمدراء والموظفين في الوزارة قبال الإصلاحات، مع إدراك التحولات التي تحدث في المجتمع وتغير الظروف الزمانية للتربية والتعليم، والبرامج يجب أن توضع بحيث تكون متناسبة مع هذه التغيرات.

٢- تغيير رؤية المدراء حول منهج التعليم؛ بحيث تكون متناسبة مع التغيرات التي حصلت، وبالخصوص مع الظروف الاستثنائية التي يمر بها البلد، والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية، والأزمات الثقافية والسياسية.

٣- تغيير طريقة التعامل مع الكادر التعليمي للبلد **(الكادر التعليمي من أكثر الأصناف الاجتماعية عناءً وفي نفس الوقت فإنهم يقومون بأخطر الأعمال)**. إن هذا التغيير له أهمية من عدة جهات منها: عدم استخدام الطرق السلطوية في التعامل مع الكادر التعليمي، وتحقير شخصياتهم، وعدم النظر إلى المعلمين كأدوات، رفع المستوى العلمي للمعلمين وتطويرهم، وإيكال بعض الصلاحيات إلى المدراء الوسطيين.

٤- تغيير رؤية المسؤولين في التربية والتعليم بالنسبة إلى طرق التربية والتعليم الديني، وفي هذا الصدد من الضروري التخطيط للاستفادة من الأساليب غير المباشرة في التربية، ونبذ الطرق البوليسية والروتينية وعدم استخدام طريقة الإجبار في أداء الواجبات الدينية. ومن خلال تطبيق هذه المسائل يمكن أن نأمل إصلاح في النظام التعليمي للبلد، ويتطلب هذا الإصلاح الالتفات إلى النقاط التالية:

١- الاستفادة من جميع القابليات، والابتعاد عن النظرة الضيقة، والتحيز والتحزب في الاستفادة من الطاقات الإنسانية.

٢- الاستفادة من الطاقات المتخصصة في المجتمع من خارج التشكيلات الرسمية؛ وذلك في مجال التخطيط العام للإصلاح.

٣- الاهتمام بحركة المعلومات ونقدها، وتنقيحها عن طريق الحوار وإعطاء المجال للمخالفين.

الحياة الطيبة: ما هي الضرورات التي يطرحها بحث (العولمة) في إصلاح نظام التربية والتعليم؟

السيد أيازي: لقد سلمنا – على أقل التقادير– بأننا اجتزنا المرحلة التي كانت فيها الجغرافية والمكان، تلعب دوراً أساسياً ومهماً، فلابد أن نقبل كذلك بأننا لا نستطيع أن نحفظ أنفسنا من آثار العولمة على الدين والثقافة، إلا أن نعد أنفسنا لتلك الظروف ونحصن الجيل الشاب قبال تلك التحديات. وفي هذه الحالة، فإن الإصلاح في نظام التربية والتعليم يكون بمعنى إعداد البرامج التربوية والتعليمية بالشكل الذي لا تتحول المواجهة مع تلك المعلومات والتجاذبات إلى أزمة ومشكلة؛ أي أن يكون هناك بوناً شاسعاً وفراغاً كبيراً. والظاهر أن أهم مشكلة تواجه نظام التربية والتعليم في ظل نظام العولمة في دول مثل إيران هي هذه المسافات؛ أي يجب أن لا يكون المستوى العلمي والتعليمي، والمعلومات إلى درجة من الفارق بحيث تشعر الطاقات الإنسانية بالانهيار والتخلف، أو يشعرون بالاستسلام قبال التجاذبات الثقافية؛ إن تجربة الاستغراب في العقود الماضية تقول لنا اعتبروا من الماضي، واجتهدوا لكي لا تكون هناك فواصل ومسافات. ويجب أن يرتب نظام التربية والتعليم بحيث يؤدي إلى تطور المستوى العلمي والمعلوماتي، بالإضافة إلى تحصين الطاقات من الانهيار والانبهار بالغرب والانحراف. إن هذا التحصين لا يعني حذف المقابل، بل المراد منه وقاية وتلقيح أنفسنا ضد هذه المخاطر.

النقطة الأخرى في مبحث نظام الإصلاح في نظام التربية والتعليم، والتحصين والإعداد، هي تربية الطاقات بالشكل الذي يتناسب مع التغييرات العالمية، وهذه الأمور تتلخص بالنقاط التالية:

١– الاهتمام بالعلم مهما كان مصدره كما جاء في تعاليمنا الدينية «**أطلبوا العلم ولو كان في الصين**»، وكذلك «**خذ الحكمة ولو من المشركين**»، [**ولو كان من الكافرين**].

٢– الاهتمام بالعمل والسعي بأي شكل من الأشكال؛ بحيث يتناسب مع أي طبقة ومستوى اجتماعي؛ لكي تتهيأ أرضية الاستقلال وثقافة الاعتماد على النفس، بدلاً من ثقافة (**طلب الثروة والغنى الفوري**) السلبية.

٣– قبول المخالف باعتباره حقيقة اجتماعية، وسعة الصدر وتحمل الجماعات المخالفة، والاجتناب عن العنف؛ لكي تحل ثقافة التعامل والتبادل محل ثقافة الحذف والاتهام والتكفير.

٤- تعلم ضرورة نقد السلطة في سبيل الإصلاح والاعتدال، وقبول القوى المخالفة في مراكز السلطة.

٥- ترويج ثقافة المشاركة والثقة بالكفاءات والقابليات المختلفة، وإقناع الطلاب بأن العمل لا يتم بيد واحدة، وأن يد الله مع الجماعة.

٦- خلق فرص المناقشة الإيجابية الفكرية والتعليمية، والابتعاد عن الانهيار والعنف وحذف الآخرين.

النقطة الثالثة: إن البلد الذي يستطيع أن يتصل بالشبكة العالمية بنجاح، أو أن لا يكون هناك انقطاع في اتصاله مع العالم الخارجي، هو البلد الذي يمكنه إنتاج معلومات أكثر، أو الحصول على معلومات أكثر. والبلد الذي يعتبر جزءاً من الدول المتقدمة هو الذي يمكنه الحصول على التقنية المعلوماتية ويستطيع أن يستخدمها بصورة جيدة؛ فإذا لم يستطع نظام التربية والتعليم أن يهيئ الأرضية المناسبة لإنتاج المعلومات وتنميتها، ويواجه انسداداً في طريق المعلومات، ويجعل رقابة في سير تدفّقها، أو لا يتخذ موقفاً منطقياً ومنظماً وهادفاً في التعامل مع المعلومات، فإنه لا يستطيع أن يمنع آثارها السيئة المدمرة، وسوف يكون كالطالب القروي الذي يدخل فجأة إلى المدينة وليس لديه معلومات عن أي شيء فإنه سرعان ما يسقط في فخ ما، أو يتعرض للتحقير والبطالة، ويفقد ثقته بنفسه، ولا يعتمد على نشاطات مفيدة، ويرى نفسه غريباً عن الناس والجو المحيط به، فمثل هذا الطالب سوف يكون الأمر عليه صعباً حتى لو أراد أن يكون عنصراً مفيداً؛ لأن هناك مسافة شاسعة بينه وبين الآخر، وحركة المنافسة كبيرة جداً، ويمكن أن نضرب مثالاً لهذا الأمر بطالبين يشتركان في اختبارات دخول الجامعة، أحدهما يمتلك الكتب الدراسية والتعليمية بالإضافة إلى المدرسين في المدرسة والمدرسين الخصوصيين، وأقسام المستشارين والمرشدين علاوة على امتلاكه تجارب الاختبارات السابقة؛ وهو ينافس طالباً آخر لا يمتلك كل هذه الوسائل والإمكانيات، ويريد أن ينافس الطالب الأول بمجرد مطالعة الكتب الدراسية فقط، إن نتيجة هذا الاختبار محكوم عليها بالفشل الذريع بالنسبة للطالب الثاني.

الطليعة: ما هي الأسس المعرفية للإصلاحات في نظام التربية والتعليم؟

السيد آيازي: لقد اتضحت هذه الأسس من خلال الأجوبة السابقة، ومع ذلك نذكر بعض النقاط:

١- من خلال التحليل العلمي والتقييم الاجتماعي نستطيع أن نعرف نواقص النظام الفعلي للتربية والتعليم، والتي تكون ناشئة، في الغالب، من فقدان الارتباط والاتصال بين الواقع الاجتماعي والتعليمي. ولا شك، في أن مجتمعنا يواجه أزمات، ولكن هذه الأزمات ترجع إلى عوامل مختلفة لا ترتبط بنظام التربية والتعليم، إلاّ أنّ المشكلة الأساسية في التربية والتعليم تعود إلى عدم وجود ثمرات عملية من التعليم، فهناك الكثير من المواضيع التي تتعرض سنوياً للتغيير في المناهج الدراسية، ولكن هل هذه المواد الدراسية ترتبط بالاحتياجات الخارجية للطلاب، وهل يمكن للطاقات الإنسانية الاستفادة منها ؟ فلابد أن نطرح مسألة الإصلاحات في التعليم على شكل مثلث ذي ثلاثة أضلاع: التعليم، الواقع الخارجي، الاحتياجات.

٢- ومن جانب آخر، فإن مجتمعنا يعيش تخلفاً في المجالات العلمية والمعنوية، وهذا التخلف يمكن تداركه عن طريق التخطيط الشامل، كما أن حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية للبلد تتوقف على خلق الأرضية في الجهاز التنفيذي، وهو الجيل الشاب.

٣- النقطة الأخرى هي أنه إذا أردنا أن يكون لدينا رصيد من العلم والعلماء، فلابد من أن يحتل العلماء والباحثين مكانة رفيعة في أذهان المسؤولين وبين أفراد المجتمع، أما إذا تعاملنا بطريقة انتقائية وروّجنا لكل من يوافقنا، وتعاملنا بصورة غير لائقة مع من يخالفنا من العلماء، أو إذا احتل أصحاب النفوذ والثروة المكانة الرفيعة والاحترام بدلاً من العلماء والمثقفين، ففي هذه الحالة لا يمكن أن نتوقع أن يكون هناك اهتمام بالعلم وسوف يحصل التعارض بين العلم والعمل.

٤- إن القيم الاجتماعية قد تغيرت بلا شك، ولا يمكن الإصرار - الآن- على استخدام القيم السابقة في التعليم، ولكن من بين القيم الجديدة يمكن اختيار ما يتناسب مع قيمنا ويعيننا على إصلاح النظام السلوكي.

٥- التأكيد على الأصول بدل الفروع، فهناك أولويات في قيمنا ومتطلباتنا، ولكنها ليست كلها في رتبة واحدة، فبعضها أصلي وبعضها فرعي في مرتبة أدنى، ويجب أن لا نخلط الأصل بالفرع، ولا توضع المسائل الأساسية والمؤثرة مع الفروع في رتبة واحدة وذلك عند التخطيط للإصلاح؛ فإن الذي يترك الأصول ويلتزم بالفروع محكوم عليه بالفشل والزوال.

الحياة الطيبة: ما هي الأسس الدينية للإصلاحات في التربية والتعليم؟

السيد أيازي: يقول الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (سورة الرعد: الآية ١١)، فإذا ما وجدت بعض النواقص والمشاكل في المجتمع فيجب أن نفكر برفعها بأنفسنا، ولابد أن نعلم من أين تنشأ مشاكلنا، ونفكر في إصلاحها بواقعية متناسبة مع الظروف والأحوال.

ومن جهة أخرى يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «**إذا تغير السلطان تغير الزمان**»، فكلما تغيرت السلطة وعمل النظام السياسي والاجتماعي على إيجاد التمايز والاختلاف الطبقي، والفساد والرشوة والظلم القضائي، فاعلموا بأن هذه التصرفات الحكومية نتيجتها الفقر، والمسكنة، والحرمان، والفساد، والانحراف والتمرد؛ ولهذا يجب التفكير في إصلاح تلك الأسباب لكي تنتفي هذه الآثار، ويمكن القيام بمثل هذا الإصلاح في الوقت الذي يكون هناك نظام إداري سليم يحكم على المجتمع، فتغيير السلطة ــ إذن ــ يؤدي إلى تغيرات اجتماعية أخرى.

النقطة الأخرى هي أنه بالرغم من أن عملية التربية والتعليم ذات أهمية كبيرة، ولكن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً مهماً وأساسياً في نظام التخطيط ووضع البرامج في التربية والتعليم أيضاً. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «**الناس بزمانهم أشبه بآبائهم**»؛ أي أن المجتمع، وخصوصاً جيل الشباب، يتأثر بالظروف المحيطة به، وأن بعض هذه الظروف تقع تحت اختيار القائمين بعملية التربية والتعليم والبعض الآخر في يد وسائل الإعلام، في حين هناك عوامل يحددها التعامل الاجتماعي لأصحاب السلطة؛ لأن الرواية تقول: «**الناس على دين ملوكهم**»، فكل مشكلة ونقيصة في سلوك الحكومة سوف تترك أثراً سريعاً ومباشراً على المجتمع. وبدون شك، فإن أحد المظاهر الجزئية لهذا السلوك هو تعامل المدراء والمعلمين.

توجد مسائل كثيرة في مجال أسس الإصلاحات، وهناك تعاليم جميلة جداً يمكن عرضها من خلال الآيات والروايات بالنسبة إلى عملية الإصلاحات، أتركها إلى فرصة أخرى، وأسأل الله – سبحانه وتعالى– التوفيق لكل العاملين في مجال التربية والتعليم.